كتب

يُعَدّ عمل دونالد وُرستر من كلاسيكيات الفكر الإيكولوجي، ويمكن وضعه ضمن طيف واسع من الأبحاث التي حاولت تحديد أصول فكرة الإيكولوجيا، مرّةً بالعودة إلى تاريخ المصطلح، ومرّات إلى مفكّرين تقاطعوا مع علاقة الإنسان بالطبيعة

رواد الإيكولوجيا عقل يتدبّر جنون الحداثة

عن بداياتٍ خجولة ومُؤسطرة

شوقي بن حسن

هناك اعتقادٌ سائدٌ بأن الإيكولوجيا حقلٌ معرفيّ حديث، نظراً لكون القضايا التي يدرسها - عِلمياً وفكرياً - حديثة نسبياً، مثل التلوّث البيئي والتغيّرات المناخية المفاجئة والنضوب الديمغرافي لبعض المناطق والضغط على مناطق أخرى. غير أن الإيكولوجيا - ولو لم تتسمّ بهذا الاسم بشكل ثابت إلّا في القرن العشرين - كانت حاضرة كوعي وكهاجس لدى عدّة مفكّرين يسمّيهم المؤرّخ الأميركي دونالد وُرستر (1941) بـ«روّاد الإيكولوجيا»، وهو عنوان كتابه الصادرة ترجمته الفرنسية مؤخّراً في سلسلة الجيب لدى منشورات «أرتو». يُعَدّ هذا العمل من كلاسيكيات الفكر الإيكولوجي، وتحديداً تاريخِه، ويمكن أن نضعه ضمن طيف واسع من الأبحاث والمؤلّفات التي حاولت تحديد أصول فكرة الإيكولوجيا، مرّةً بالعودة إلى تاريخ ظهور المصطلح، ومرّات بالعودة إلى مفكّرين تقاطعوا مع علاقة الإنسان بالطبيعة مثل جان جاك روسو وكارل ماركس. ولم تخلُ حتى ثقافتنا العربية من هذه الجهود، إذ نجد كثيرين يُرجعون تبرعُم الفكر الإيكولوجي إلى مقدّمة ابن خلدون. بالنسبة إلى ورستر، فإن للإيكولوجيا أبَوَيْن؛ أب فكريّ هو هنري ديفيد ثورو، وقد وسم المؤلف تصوّراته بـ«الإيكولوجيا الرومانسية»، وأب عِلميّ، هو تشارلز داروين، وهو مُطلق «الإيكولوجيا المتشائمة»، تلك التي تبدو أقرب إلى أفلام نهايات العالم.

لكنّ الكتاب ليس اختزالياً بحيث يختصر انبلاج الفكر الإيكولوجي في اسمين يطمئنّ إليهما، بل على العكس، تكمن قيمته في محاولته رسم مرحلة ولادة هذه المعرفة الجديدة باعتبارها شبكة من التفاعل بين الأشخاص والمجتمعات؛ فبدون وعي جماعيّ، أو بعبارة المؤلف: «جوّ من التحفيز الثقافي العام» حول قضية البيئة، ما كان ليظهر حسّ إيكولوجي. حدث ذلك بحسب ورستر في عصر الأنوار، عصر انفلات المخيّلة المعرفية وطَرْق مشاريع كانت تبدو مستحيلة منذ بضعة عقود. في ذلك القرن الثامن عشر، ظهر، بحسب المؤلّف، نسيجٌ من المفاهيم مثل التوازن والوفرة والترابط والحالة الطبيعية ستكون أرضيّة خصبة لتبلور مشروع بناء حقل معرفيّ جديد هو الإيكولوجيا.

يعيد المؤرّخ الأميركي وضع اللبنة الأولى في هذا المشروع إلى شخصية غير معروفة كفاية في الثقافة العامة اليوم، جيلبير وايت، وهو قاضٍ من بلدة سيلبورن جنوب إنكلترا، كانت لـه مجموعة من الهوايات الفردية الطريفة، منها محاولة دارسة أثر الانتقال بين الفصول الأربعة والبحث في منشأ التسميات، وهي أشكال من الهواية كانت دارجة وقتها (مثلها مثل دراسة اللغات الميتة وجماجم الشعوب البعيدة)، لكنّ قليلاً منها قد تزامن مع منعطف تاريخي خطير، ذلك أن إنكلترا آنذاك كانت تعيش على وقع عاصفة ستغيّر مشهدها إلى الأبد.

كانت الثورة الصناعية في بداياتها، وقد أخذ الهدوء الراسخ لأقاليم برمّتها يتفسّخ بالتدريج، وحين وضع وايت كتابه «التاريخ الطبيعي لسيلبورن» (1789) لم يكن يعلم أنه سيترك أثراً سيؤرّخ به دونالد وُرستر ظهور أوّل وعي مباشر بضرورة صعود عقل يتدبّر الجنون الذي دخلته البشرية مع عصر التصنيع. تفطّن وايت إلى أن الطبيعية، مثلها مثل معمار مدن الحضارات القديمة، مهدّدة بالاندثار ما لم تجد الرعاية الكافية، وأن هذا الاندثار تدريجيّ، وبالتالي فإنّ كتابة تاريخ طبيعي بات واجباً، فبعد عقود لن يكون الريف البريطاني كما كان، وبعد قرون لن يبقى أي ريف كما كان في أي مكان من العالم.

يرى المؤرّخ الأميركي أنه، في نفس الفترة، وضمن نفس الوعي تقريباً (محاولة مسك العقل العِلمي بمِقود عربة التاريخ البشري)، ظهرت مشاريع علوم مثل الاقتصاد وعلم الأحياء، وهي علوم وجدت الطريق سالكةً للتبلور بسرعة بسبب الحاجة إليها من قبل مراكز القوى، وعلى وجه التحديد الدول ورؤوس الأموال. ولمّا كانت الإيكولوجيا في طورها الأول أقرب إلى مرثية مبكّرة، كان من الطبيعي ألّا يقف وراءها الداعمون والمموّلون، فلم تتحوّل إلى قطاع اجتماعي يستقلّ بذاته، وهكذا لم يبقَ لها سوى أن تتخفّى في علوم أخرى، لتظهر ضمن انشغالات داروين العِلمية، أو أن تتحوّل إلى يوتوبيا، كما هو الحال عند ثورو.

من أطروحات كتاب ورستر حضورُ ما هو غير حداثي كعوامل مغذّية للإيكولوجيا باعتبارها إفرازاً معرفياً لعصور الحداثة، حيث يُظهر طوال كتابه أثرَ الخلفيّات الدينية للمنظّرين الذين يذكرهم، وهي مؤثّرات المعتقدات التي نشأوا عليها (الأدبيات المسيحية تحديداً، والتي يمكن بسهولة تطويعها للخطاب الإيكولوجي)، وأيضاً بحثهم في ثقافات أخرى عن مرتكزات فكرية، إذ كثيراً ما تقاطعوا مع ديانات شرق آسيا. وبشكل عام، يُثبت ورستر أن الفكر الإيكولوجي مدينٌ في تطوّره لإيمان الروّاد بأفكار مثالية ونماذج طوباوية كانت تحرّكهم نحو أهداف لم تكن واضحة في زمنهم، فهي لا تنتمي إلى الحِسّ المشترك، ولا تتوفّر حتى المفردات الكافية لشرح أطروحاتهم، وقد أنتج ذلك طيفاً من الخطابات المتجانسة، من الفلسفة إلى العلوم المجرّدة، وهو ما يعقّد مهمّة كلّ مَن يحاول التصدّي لتاريخ الفكر الإيكولوجي.

بعيداً عن موضوعه المباشر، أي تاريخ الإيكولوجيا، يمكن النظر إلى كتاب وُرستر على كونه محاولة في فهم كيف تتبلور الحقول المعرفية؛ إنها في النهاية كائنات تاريخية تتطوّر عبر الزمن وتحتاج إلى شروط حياة كثيرة كي تستمر، كما أنها يمكن أن تعاني من النبذ والتهميش، ويمكنها - ضمن ظروف مختلفة - أن تزدهر مثلما تزدهر البلدان والمدن.

من منظور آخر، يفسّر الكتاب، وهو يتناول تاريخ الإيكولوجيا، لماذا ظلّ هذا النوع من الكتابات نادراً. طوال فصول كتاب «روّاد الإيكولوجيا» سنعرف كم هو مفلتٌ هذا التاريخ، فنحن مرّة نتحدّث عن منجز عالم نباتات مثل كارل فون ليني، وحين يُستدعى لا بدّ من إضاءة بيئته في السويد، ومرّة يأتي ذكر نصوص هنري ديفيد ثورو، ولا بدّ في وقتها من معرفة شيء عن سياقاتها الأدبية والفكرية. إذن، في كلّ خطوة من كتابة تاريخ بدايات الإيكولوجيا، يجد المؤرّخ نفسه مضطرّاً للسفر بعيداً، في جغرافيات متنوّعة وفي حقول معرفية متباينة، ولعلّ التعقيد الواضح في مسار هذه الأسفار هو ما يفسّر صعوبة كتابة تاريخ الإيكولوجيا، فمادته تقع في تواريخ فضاءات كثيرة، ويمكن أن نستنتج هنا أنه لولا صعود نزعة المعرفة العابرة للتخصّصات لَما كان من الممكن كتابة هذا النوع من المادة التاريخية.

يتوقّف بحثُ وُرستر عند أربعينيات القرن الماضي، فما بعدها يسمّيه بـ«العصر الإيكولوجي» (ومنه عصرنا اليوم)، ذلك الذي تحوّلت فيه الإيكولوجيا إلى ظاهرة كوكبية لها فاعليّتها وثوابتها، بل إنها اليوم باتت أقرب إلى جماعة ضغط عِلمية - فكرية، كما باتت - وهي التي وُلدت متأخّرة عن بقية الحقول المعرفية - تلتهم الكثير من الحقول المجاورة، ومنها الاقتصاد وعلم الأحياء، وأكثر من ذلك أخذت موقع القاضي بين معارف وتكنولوجيات كثيرة، فأيّ بحث لا يُراعي المنظور الإيكولوجي بات منذ عقود خارج دائرة الإضافة المرغوبة للمعرفة.

تؤكّد ذلك العودةُ الكثيفة إلى كتاب وُرستر الذي ظهرت نسخته الأولى في 1977، ومن ثمّ بقي المؤرّخ الأميركي يطوّره ويشذّبه، وهو يأتي في طبعته الفرنسية اليوم في شكل كتاب جيب، زهيد الثمن، مُعتنىً بإخراجه وجودة ورقه، يحاول ترويج الفكر الإيكولوجي بشكل واضح وصريح. ويبدو كتاب وُرستر مناسباً لمثل هذا الدور الدعائيّ، وربما الدَعَويّ؛ كيف لا وهو يعيدنا إلى زمن البدايات، والبدايات أسطورية وجذّابة عادة...

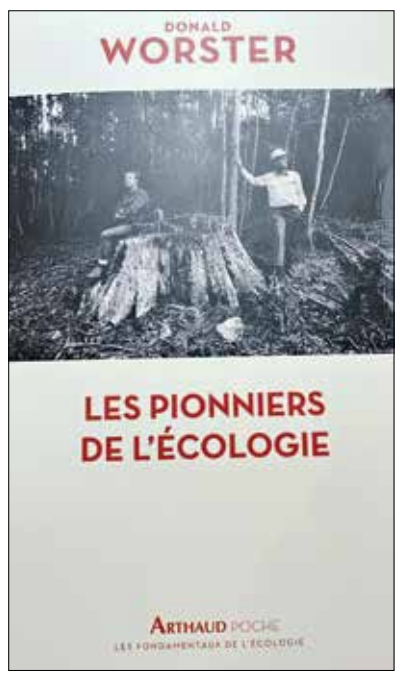

أيديولوجيا العقود الأخيرة

ظهرت الترجمة الفرنسية لـ«روّاد الإيكولوجيا» في كتاب جيب، وهو حجم مخصّص لكتب مضمونة الانتشار، كما يحدث أن تُطبع كتب بهذا الحجم لإيصالها على مدى واسع، وهو حال الكثير من الكتب الإيكولوجية مؤخّراً. ظاهرة ترتبط بدخول دعاة الحفاظ على البيئة في العقود القليلة الماضية على خط السياسة، وهو ما يعني أن الإيكولوجيا لم تعد مجرّد خطاب نقديّ بل باتت أقرب إلى الأيديولوجيا.

ظهرت الإيكولوجيا كعقل يحاول أن يتدبّر جنون عصر التصنيع

لولا صعود المعرفة العابرة للتخصصات لما كُتب تاريخ البيئة

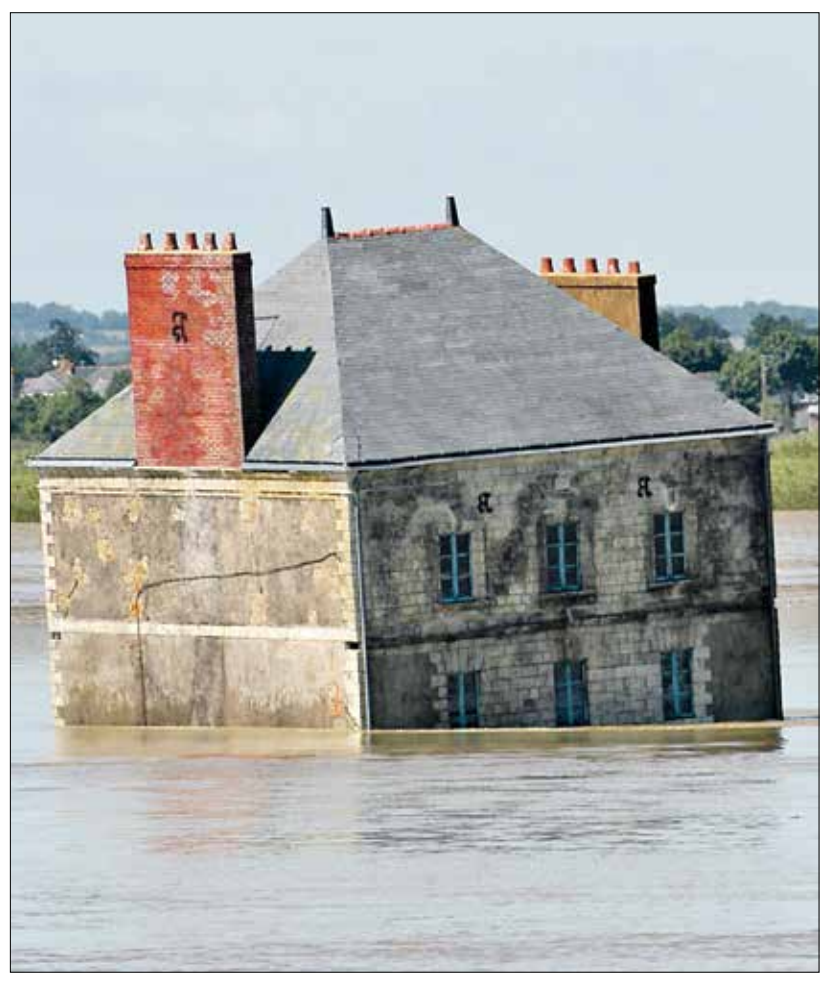

تجهيز لـ جان لوك كوركو، بالقرب من مدينة نانت الفرنسية، 2007 (Getty)

نظرة أولى

الحركة الطلابية الفلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة عنوان كتاب للباحث أحمد حنيطي صدر حديثاً عن «مؤسسة الدراسات الفلسطينية». يعقد الكتاب مقارنة بين الواقع والراهن وبين عقديْ السبعينيات والثمانينيات اللذين شهدا زخماً كبيراً في الحراك الطلابي الفلسطيني وحضوراً في الحياة العامة، ويربط التراجع الحاصل بانحسار تأثير الأحزاب السياسية والحركة الوطنية صورة عامة، كما يناقش البنية الاجتماعية التي تعمل فيها الحركة الطلّابية الحالية، الأمر الذي يضفي أبعاداً محبطة على ناشطي الحركة ويقلّل فرص تطورها وتقدمها.

عن «المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات» صدرت حديثاً النسخة العربية من كتاب **روسيا في البحر الأبيض المتوسط: حملة كاترينا العظمى في الأرخبيل** للباحثين إ. م. سميليانسكايا، وم. ب. فيليجيف، وي. ب. سميليانسكايا بترجمة محمد دياب وجمال كمال القرى. يستعرض الكتاب المحاولات الروسية للعودة إلى المياه الدافئة من خلال فهم طبيعة تحالفات موسكو في المنطقة وصراعاتها مع الدول الإقليمية على مدار أكثر من مئتين وخمسين عاماً؛ منذ عهد بطرس الأكبر، مروراً بكاترينا الثانية وورثتها، والحقبة السوفييتية، وصولاً إلى النظام الحالي.

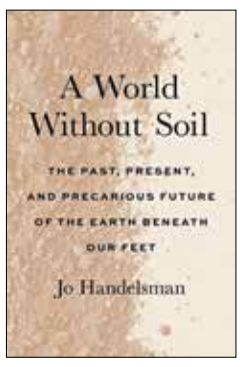

في كتابه **عالم بلا تربة: الماضي والحاضر والمستقبل المحفوف بالمخاطر للأرض تحت أقدامنا** الصادر عن «منشورات جامعة يال»، يتناول الباحث جو هاندلسمان الروابط المعقّدة بين تغيّر المناخ وتآكل التربة والأمن الغذائي والمائي، حيث ستكون مساحات شاسعة من الأراضي الزراعية قاحلة من التربة السطحية خلال هذا القرن بسبب التلوّث والاحتياجات المتزايدة للغذاء، ما سيسبّب أزمات ستعصف بالبشرية ويستدعي التفكير بطرائق مبتكرة من إجل تأمين استدامة أطول، وقد يكون مستغرباً أنّ جزءاً من هذه الحلول يمكن تعلّمه من الحضارات القديمة.

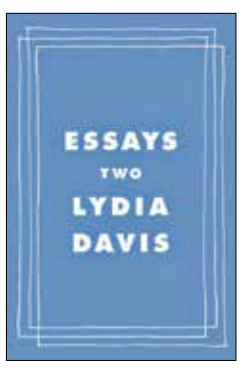

للقاصّة والمترجمة الأميركية ليديا دايفز (1947)، صدر حديثاً، لدى منشورات «مكميلان» في نيويورك، كتاب **محاولات: اثنان** الذي يضمّ مقالاتٍ وحوارات للمؤلّفة حول مهنتها الأساسية: الترجمة. تتناول دايفز التأثير الذي تركه على مسيرتها قيامُها بنقل كتّاب فرنسيين مثل مارسيل بروست وغوستاف فلوبير إلى الإنكليزية، كما تعرّج على زيارة لها إلى مدينة آرل الفرنسية، وعلى تعلّمها لعدد من اللّغات. الكتاب يأتي بعد عمل حمل عنوان «محاولات: واحد» تناولت فيه مواضيع مثل تقنيات الكتابة، والفوتوغرافيا، وتمثُّلات الدين في الأدب.

يبدو كتاب **الجمهورية** لأفلاطون أشهر من يُعَرّف، إذ ما من قارئ فضوليّ إلّا وسبق أن سمع عنه، هذا إن لم يقرأه. على أنّ شهرة عمل الفيلسوف الإغريقي غطّت نوعاً ما على كتاباتٍ أُخرى حول الموضوع نفسه، لا سيّما كتابَيْ «الجمهورية» اللذين وضعهما الفيلسوفان الإغريقيان الآخران: ديوجانس الكلبي وزينون الرواقي. كتاب «الجمهوريات الثلاث» الصادر حديثاً لدى منشورات «فران» الفلسفية في باريس، بتحرير سوزان أوسون وجولييت لومير، يسعى إلى الإضاءة على هذين الكتابين وإلى إيضاح علاقتهما وتقاطعاتهما مع «جمهورية» أفلاطون.

عن «مركز دراسات الوحدة العربية» صدرت حديثاً الطبعة الثانية من كتاب **من جمر إلى جمر: صفحات من ذكريات منير شفيق** بتدوين وتحرير نافذ أبو حسنة. يُضيء العمل سيرة المفكّر الفلسطيني (1934) منذ طفولته قبيل النكبة. مروراً بالمحطّات التاريخية التي مرّت بها القضية الفلسطينية، والتحوّلات العربية والإقليمية والدولية التي أثّرت فيها. لا تعكس المذكّرات، كما نقرأ على غلاف الكتاب، وجهةَ نظر قادة «الصفّ الأوّل» في المقاومة الفلسطينية، بل غلب عليها عرض تجربة شفيق الشخصية ومقاربته للوضع السياسي في كل مرحلة من مراحلها.

بترجمة طارق عثمان، صدر حديثاً عن «الشبكة العربية للأبحاث والنشر» كتاب **سوسيولوجيا الحرب والعنف** لـ سينيشا مالشيفيتش، وفيه يذهب إلى وجود افتتان بشريّ بالعنف، يتجلّى في الثقافات الشعبية والأعمال الأدبية والفنية والألعاب التي تزخر بصور العنف وأدواته. يُحاول مالشيفيتش تقديم نظرية سوسيولوجية لنشأة العنف والحرب في المجتمع الإنساني، معتبراً أنّ النظريّتَين اللتين تعتبران أنّ الإنسان عنيف بطبعه (ميكيافيلي وهوبز)، أو مسالم بطبعه (روسو وكانط) لا تُقدّمان تفسيراً سوسيولوجيّاً دقيقاً لعلاقة البشر بالحرب والعنف.

رأس المال الثقافي ومستقبل التنمية في السودان: دراسة ميدانية على مدينة الخرطوم عنوان كتاب لمحمد عبد الراضي محمود صدر حديثاً عن «الهيئة المصرية العامّة للكتاب». يعني «رأس المال الثقافي»، حسب المؤلّف، «مجموعة الرموز والمهارات الثقافية واللغوية والمعاني التي تُمثّل الثقافة السائدة، وتتجلّى في النزعات الثقافية، والعادات المكتسبة من التنشئة الاجتماعية والكتب والشهادات العلمية والممارسات الثقافية». ومن هنا يتناول المؤلّف النخبة في السودان، مضيئاً على إنتاجاتها واتّجاهاتها ودرجة الاهتمام بها في الدولة.